

الإمام أحمد بن حنبل



نسبه وقبيله

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني. قال ابن الأثير: "ليس في العرب أعز داراً، ولا أمتع جاراً، ولا أكثر خلقاً من شيبان". وكان في قبيلة شيبان الكثير من القادة والعلماء والأدياء والشعراء، فالإمام أحمد عربي أصيل ينتمي إلى هذه القبيلة، وهي قبيلة رعية عدنانية، تلتقي مع النبي صلى الله عليه وسلم في نزار بن معد بن عدنان. وكان الإمام أحمد (رحمه الله) رجلاً طويلاً رقيقاً، أسمر اللون، كثير التواضع، وقد وُلِدَ بعدد سنة 461هـ/ 087م.

طفولته وتربيته

نشأ أحمد بن حنبل تيتياً، وكسائر أترابه تعلم القرآن في صغره، وتلاه تلاوةً جيدة وحفظه عن ظهر قلب، وعندما تجاوز الخامسة عشرة من عمره بدأ يطلب العلم، وأول من طلب العلم عليه هو الإمام أبو يوسف القاضي، والإمام أبو يوسف - كما هو معلوم - من أشمة الرأي مع كونه محدثاً، ولكن مع مرور الوقت وجد الإمام أحمد أنه يرتاح لطلب الحديث أكثر، فنُحوِلَ إلى مجالس الحديث، وأعجبه هذا النهج واتفق مع صلاحه وورعه وتقواه، وأخذ يتجول ويرحل في سبيل الحديث حتى ذهب إلى الشامات والسواحل والمغرب والجزائر ومكة والمدينة والحجاز واليمن والعراق وفارس وخراسان والجيال والأطراف والتغور، وهذا فقط في مرحلته الأولى من حياته. ولقد التقى الشافعي في أول رحلة من رحلاته الحجازية في الحرم، وأعجب به، وظل الإمام أحمد أربعين سنة ما يبث لبه إلا ويدعو فيها للشافعي. وقد حبل بين أحمد ومالك بن أنس فلم يوفق للاقائه، وكان يقول: "لقد حرمت لقاء مالك، فعضني الله عز وجل عنه سفيان بن عيينة".

أهم ملامح شخصيته وأخلاقه

ورعه وتقواه وتعففه
كان رحمه الله عفيفاً، فقد كان يستزق بأدني عمل، وكان يرفض أن يأخذ من صديق ولا شيخ ولا حاكم قرصاً أو هبة أو إرثاً لأحدٍ يؤثره به.

قال أبو داود: "كانت مجالس أحمد مجالس آخرة، لا يُذكر فيها شيء من أمر الدنيا، وما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط".

ثبات الإمام رغم المحنة

كان الإمام أحمد علي موعد مع المحنة التي تحملها في شجاعة، ورفض الخضوع والتنازل في القول بمسألة عمّ البلاء بها، وحمل الخليفة المأمون الناس على قبولها قسراً وقهراً دون دليل أو بيّنة.

وتفاصيل تلك المحنة أن المأمون أعلن في سنة (812هـ/338م) دعوته إلى القول بأن القرآن مخلوق كغيره من المخلوقات، وحمل الفقهاء على قبولها، ولو اقتضى ذلك تعريضهم للتعذيب، فامتثلوا خوفاً ورهبا، وامتنع أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح عن القول بما يطلبه الخليفة، فكُذِلَا بالحديد، وبعت بهما إلى بغداد إلى المأمون الذي كان في طرسوس، لينظر في أمرهما، غير أنه توفي وهما في طريقهما إليه، فأعيدا مكبلين إلى بغداد.

وفي طريق العودة قضى محمد بن نوح نجبه في مدينة الرقة، بعد أن أوصى رفيقه بقوله: "أنت رجل يُقْتَدَى به، وقد مدَّ الخلق أعتاقهم إليك لما يكون منك؛ فاتق الله وأنتب لأمر الله".

وكان الإمام أحمد عند حسن الظن، فلم تكن عزيمته، أو يضعف إيمانه أو تهتر تفته، فمكث في المسجد عامين وثلاث عام، وهو صامد كالرواسي، وحُملَ إلى الخليفة المعتصم الذي واصل سيرة أخيه على حمل الناس على القول بخلق القرآن، واتخذت معه في حضرة الخليفة وسائل الترغيب والترهيب، ليظفر المجتمعون منه بكلمة واحدة، تؤيدهم فيما يزرعون، يقولون له: ما تقول في القرآن؟ فيجيب: هو كلام الله. فيقولون له: أم مخلوق هو؟ فيجيب: هو كلام الله. ولا يزيد على ذلك.

وبإيالة الخليفة في استماتته وترغيبه ليجيبهم إلى مقالته، لكنه كان يزداد إصراراً، فلما أيسوا منه علقوه من عقبيه، وراحوا يضربونه بالسياط، ولم تأخذهم شفقة وهم يتناقضون على جلد جسده الإمام الواهن بسياطهم اللطيفة حتى اغشى عليه، ثم أطلق سراحه وعاد إلى بيته، ثم منع من الاجتماع بالناس في عهد الخليفة الواثق - (227-232هـ/ 841-648م)، لا يخرج من بيته إلا للصلاة، حتى إذا ولي المتوكل الخلافة سنة (232هـ/648م)، فمنع القول بخلق القرآن، ورد للإمام أحمد اعتباره، فعاد إلى الدرس والتحديث في المسجد.

شيوخه

هشيم، وسفيان بن عيينة، وإبراهيم بن سعد، وجريز بن عبد الحميد، ويحيى القطان، والوليد بن مسلم، وإسماعيل بن علي، وعلي بن هاشم بن البريد، ومعتز بن سليمان، وعمر بن محمد ابن أخت الثوري، ويحيى بن سليم الطائفي، وغندر، وبشر بن المفضل، وزباد الكائني، وأبو بكر بن عياش، وأبو خالد الأحمر، وعاد بن عباد المهلب، وعاد بن العوام، وعبد العزيز بن عبد الصمد العمي، وعمر بن عبيد الطائفي، والمطلب بن زياد، ويحيى بن أبي زائدة، والقاضي أبو يوسف، وكيع، وابن نمير، وعبد الرحمن بن مهدي، وزيد بن هارون، وعبد الرزاق، والشافعي، وغيرهم.

تلاميذه

البخاري، ومسلم، وأبو داود، وإبناه صالح وعبد الله، وشيوخه عبد الرزاق، والحسن بن موسى الأشيب. ومن تلاميذه أيضاً أبو بكر المروري الفقيه، وأبو زرعة الدمشقي، وأبو بكر الأثرم، وإبراهيم الحري، ويحيى بن معين، وغيرهم كثير.

من مؤلفاته

كتاب المسند، وهو أكبر دواوين السنة المطهرة، إذ يحوي أربعين ألفاً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، انتقاها الإمام أحمد من بين سبعائة وخمسين ألف حديث.

وله من الكتب أيضاً كتاب الأشربة، وكتاب الزهد، وكتاب فضائل الصحابة، وكتاب المسائل، وكتاب الصلاة وما يلزم فيها، وكتاب النسخ والمنسوخ، وكتاب العلل، وكتاب السنن في الفقه.

منهجه العلمي

اشتهر الإمام أحمد أنه محدث أكثر من أن يشهر أنه فقيه، مع أنه كان إماماً في كليهما. ومن شدة ورعه ما كان يأخذ من القياس إلا الواضح وعند الضرورة فقط، وكان لا يكتب إلا القرآن والحديث، من هنا عرف فقه الإمام أحمد بأنه الفقه بالمأثور؛ فكان لا يفتي في مسألة إلا إن وجد لها من أفتي بها من قبل، صحابياً كان أو تابعياً أو إماماً. وإذا وجد للصحابة قولين أو أكثر، اختار واحداً من هذه الأقوال، وقد لا يترجح عنده قول صحابي على الآخر، فيكون للإمام أحمد في هذه المسألة قولان.

وهكذا فقد تميز فقهه أنه في العبادات لا يخرج عن الأثر قيد شرة، فليس من المعقول عنده أن يعبد أحدٌ ربه بالقياس أو بالرأي؛ إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صلوا كما رأيتموني أصلي"، وقال في الحج: "خذوا عني مناسككم".

وكان الإمام أحمد شديد الورع فيما يتعلق بالعبادات التي يعتبرها حق لله على عباده، وهذا الحق لا يجوز مطلقاً أن يتساهل أو يتهاون فيه. أما في المعاملات فيتميز فقهه بالسهولة والمرونة والصلاح لكل بيئة وعصر، فقد تمسك أحمد بنصوص الشرع التي غلب عليها التيسير لا التعسير. مثال ذلك: "الأصل في العقود عند الإباحة ما لم يعارضها نص"، بينما عند بعض الأئمة الأصل في العقود الحظر ما لم يرد على إباحتها نص.

وكان شديد الورع في الفتاوى، وكان ينهي تلاميذه أن يكتبوا عنه الأحاديث، فإذا رأى أحداً يكتب عنه الفتاوى نهاه، وقال له: "لعلني أطلع فيما بعد على ما لم أطلع عليه من المعلوم فأغري فتواي، فأين أجرك لأخريك؟!"

ولما علم الله تعالى صدق نيته وقصده، فيُضِلُّ له تلامذة من بعده يكتبون فتاويه، وقد كتبوا عنه أكثر من ستين ألف مسألة، ولقد أخذ بيمداً الاستصحاب، كما أخذ بالأحاديث المرسلة.

ما قيل عنه

عن إبراهيم الحري قال: "رأيت أحمد بن حنبل كان الله قد جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف، يقول ما شاء ويمسك ما شاء". وعن أحمد بن سنان قال: "ما رأيت يزيد بن هارون لأحد أشد تعظيماً منه لأحمد بن حنبل، ولا رأيت أكرم أحداً كرامته لأحمد بن حنبل، وكان يقعد إلى جنبه إذا حدثنا، وكان يوقره ولا يمازحه، ومريض أحمد فركب إليه فعاده".

وقال عبد الرزاق: "ما رأيت أفقه ولا أروع من أحمد بن حنبل". وقال وكيع، وحفص بن غياث: "ما قدم الكوفة مثل أحمد بن حنبل". وكان ابن مهدي يقول: "ما نظرت إليه إلا ذكرت به سفيان الثوري، ولقد كاد هذا الغلام أن يكون إماماً في بطن أمه".

موقف مع الامام :

كان الإمام أحمد بن حنبل يريد أن يقضي ليلته في المسجد ولكن مُنِعَ من المبيت في المسجد بواسطة حارس المسجد ، حاول معه الامام ولكن دون جدوى ، فقال له الإمام سأنام موضع قديمك ، وبالفعل نام الإمام أحمد بن حنبل مكان موضع قدميه فقام حارس المسجد بجره لإبعاده من مكان المسجد ، وكان الإمام أحمد بن حنبل شيخ وقور تبدو عليه ملامح الكبر ، فراه خياز فلما رآه يجر بهذه الهيئة عرض عليه المبيت ، وذهب الإمام أحمد بن حنبل مع الخياز، فأكرمه ونعمه ، وذهب الخياز لتخصيص عجيبة لعمل الخبز فسمع الإمام أحمد بن حنبل الخياز يستغفر ويستغفر ، ومضى وقت طويل وهو على هذه الحال فتعجب الإمام أحمد بن حنبل ، فلما أصبح سأل الخياز عن سبب استغفاره في الليل : فأجابه الخياز : أنه طوال ما يحضر عجيبة ويعجن فهو يستغفر فسأله الإمام أحمد : وهل وجدت لاستغفارك ثمره ؟ والإمام أحمد سأل الخياز هذا السؤال وهو يعلم ثمرات الاستغفار و يعلم فضل الاستغفاروفوائده.

فقال الخياز : نعم ، والله ما دعوت دعوة إلا أجيبته إلا دعوة واحدة !

فقال الإمام أحمد : وما هي ؟

فقال الخياز : رؤى الإمام أحمد بن حنبل !

فقال الإمام أحمد : أنا أحمد بن حنبل والله اني جُرت إليك جرأ !!

وفاته

عن بنان بن أحمد القصباني أنه حضر جنازة أحمد بن حنبل فيمن حضر، قال: "فكانت الصقوف من الميدان إلى قطرة باب القطبية، وحُزِرَ (حُزِرَ الشيء: حفره بالتخمين) من حضرها من الرجال فكانوا ثمانمائة ألف، ومن النساء ستين ألفاً. رحم الله الإمام أحمد بن حنبل رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

كاتب المقالة : أحمد محمد الدقره

تاريخ النشر : 03/06/2013

من موقع : قناة نور الحكمة الإلكترونية - صوت علماء الأزهر الشريف بفاقوس

رابط الموقع : WWW.norelhekma.com